جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم الانسانية
مجلة اوروك للعلوم الانسانية
موقع المجلة : www.muthuruk.com
BM-Publisher

التمثل الهوياتي في رواية(ساق البامبو)

محمد فليح الجبوري*
جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم الإنسانية

معلومات المقالة

تاريخ المقالة:
الاستلام: 2019/2/25
تاريخ التعديل : --
قبول النشر: 2019 /3/19
متوفر على النت:2019/7/4

الكلمات المفتاحية :
التمثل الهوياتي
ساق البامبو

الملخص

يمارس الكاتب سعود السنعوسي فن الكتابة الروائية بمسؤولية عالية ، وهو يعي قوة سلطة الكتابة فيقف على موضوعات في غاية الأهمية ليس فقط في المجتمع الكويتي وإنما في المجتمعات الخليجية عامة، ونجده يمتلك من الجرأة ما مكنته من الكتابة عن الهوية الوطنية في الكويت وهو الموضوع الأكثر حساسية في تلك الدولة، بيد أن هذا الفعل الكتابي لم يطرق البوابة الرئيسة ونريد بها هوية اللاهوية (البدون) وإن أشار إليها بخجل في روايته (ساق البامبو) – مساحة هذه القراءة – وهي قضية فيها من الحساسية ما فيها إذ تتوجه الإدانة فيها الى السلطة السياسية دون السلطات الأخرى فيما إذا كانت ثمة ادانة، وإنما تناول موضوع الهوية من زاوية تكون الإدانة فيها الى المجتمع دون السلطة السياسية ، ونريد بها هوية أبناء الكويتيين من غير الكويتيات، وفيها تتوجه الإدانة للسطلة الاجتماعية.
وقد جاء البحث بعنوان (التمثيل الهوياتي في رواية (ساق البامبو))، وفيه توصلنا الى جملة من النتائج:
-إن رواية (ساق البامبو) هي رواية هوياتية بامتياز بنى مؤلفها سعود السنعوسي معمارها السردي على هذه الثيمة المهمة، ويمكن أن نضمها الى ما يمكن أن نصطلح عليه روايات الهوية، التي تمثل اتجاهاً في الكتابة السردية الروائية المعاصرة.
-لا يمكن اختزال الهوية الوطنية في أوراق رسمية تثبت أنك تنمي لهذه الدولة أو تلك أو أنك مواطن درجة أولى، إنما هي انتماء وولاء وعنهما تتشظى مضامين كثيرة منها التضحية والدفاع عن الوطن والإخلاص له والعمل من أجل تطوره.
- إن جيل الشباب هو أكثر تقبلاً لأصحاب اللاهوية الذين لا يحضون بالاعتراف الهوياتي من قبل السلطة الاجتماعية أو السلطة السياسية.
-الاعتراف الاجتماعي هو البوابة الرئيسة لشعور الفرد بهويته الوطنية بوصفه عنصراً فاعلاً في بناء الدولة، فحرمان الأفراد من هذا الشعور هو في حد ذاته ادانة كبيرة لذلك المجتمع.
-ثمة أساليب سلوكية اجتماعية دينية تسهم في ترسيخ هذه الهوية داخل نفوس الافراد، وعلها عوّل كثير بطل الرواية في تلمس هويته الدينية الحقيقية.
-ضياع الهوية الدينية الإسلامية في خضم الصراعات الايديولوجية داخل الدين الواحد وفي الطائفة الواحدة، فلم يستطع المرء التفريق بين الصالح والطالح.

© جميع الحقوق محفوظة لدى جامعة المثنى 2019

*الناشر الرئيسي : E-mail : kmf19682005@mu.edu.iq

المقدمة

نزعم أن رواية (ساق البامبو) للكاتب سعود السنعوسي من الروايات الكويتية المهمة التي عالجت موضوعاً مهماً، بل يمكن عدُّه موضوعاً اشكالياً في بلد مثل الكويت إلا وهو موضوع الهوية؛ لما له من معطيات كثيرة على الصعيدين الاجتماعي والسياسي داخل الكويت نفسها، فقضية البدون بحد ذاتها تُعدُّ القضية الأهم التي تؤرق السلطات بشتى أنواعها بدءً من السلطة الاجتماعية وصولا الى السلطة السياسية ، إلا أن الكاتب تناول موضوع الهوية من زاوية أخرى مكتفياً بالإشارة الى هذه القضية من خلال توظيفه لبرامج سردية ثانوية تسهم في تعزيز الحدث السردي الرئيس في هذه الرواية، وكأنه يغض الطرف عنها في هذه المساحة السردية او يؤجلها الى حين، إذ تناول هوية الكويتيين اللذين ولدوا لأمهات غير كويتيات، وهذه الثيمة تأتي من حيث الشيوع والاهمية في المجتمع بعد قضية البدون، ونجد أن هذه الالتفاتة السردية تستحق التقدير والاشادة لما لهذا الموضوع من أهمية كبيرة؛ ولذا فقد حظيّت هذه الرواية باهتمام النقاد والمهتمين بالشأن الروائي بل ومن الفنانين لتتحول الى عمل درامي عُرض على القنوات المرئية مؤخراً ، وبناء على ما تقدم شرعنا بتفحص هذا النتاج السردي تحت عتبة رئيسة وسمناها بـ(التمثل الهوياتي في رواية (ساق البامبو)) ليشخص لدينا هيمنة هويتين كبيرتين وهما الهوية الوطنية والهوية الدينية على ثيمة الرواية، وبناءً عليه جاءت خطة البحث على محورين: الهوية الوطنية والهوية الدينية متتبعين حضورهما بعد أن اضاءة موجزة للمصطلحين، سالكين مسار النقد الثقافي في قراءته وتحليله، مستعينين بالمصادر العربية التي اعتنت بموضوع الهوية.

واقعية المخيال السردي

النص السردي وبتنوع أجناسه هو نص من انتاج الخيال، وإن اتفق بنسبة كبيرة في أحداثه مع وقائع حياتية حدثت بالفعل، أو أنه تدوين لها كأن تكون القصة المسرودة حدثت في الواقع، وهذه الرؤية تعتمد اعتماداً كبيراً على نظرية المثال التي عرضها افلاطون التي تقول ثمة حقيقة واحدة يكمن وجودها في عالم المثل وما عداه هو نسخه منه لا يمكن وصفها بالصادقة ،وإذا راود الشك الكثير من الفلاسفة في فكرة افلاطون على مستوى الحقائق المادية المحسوسة لغياب العلم بعالم المثل ذاك؛ فإن هذا الأمر يشتغل مع السرد؛ لإدراكنا لعالم المثل السردي(الواقع) -لأن الحقيقة تكمن في الواقع فقط -الذي يقابل عالم المثل عند افلاطون؛ وبذلك لا يمكن للأداة البشرية(النصوص)أن تطابق الواقع كما لا يمكن أن يطابق الواقع عالم المُثل عند افلاطون ،فلا يمكن مثلا أن تصح المقارنة الواقعية بين شخصية في رواية ما وبين كاتب تلك الرواية؛ لأن مَن أبدع الشخصية الروائية هو كاتبها، ومن خلق(أبدع) الكاتب هو الله، وثمة فرق لا يمكن توصيفه بين الله سبحانه وخلقه . نخلص مما سبق الى أن(السرد حالة ابداع خيالي)([1]) بكل أجناسه، فهو نصوص من ابداع خيال الانسان، إلا أن سلطة الخيال وتدخلاته في صوغ المضمون السردي تختلف من حيث الغايات والآليات، ومن جنس لآخر، فالسرد التاريخي مثلا هو غير السرد الروائي :فالأول يحاول الاقتراب من الوقائع التي حدثت بكل ما أوتي من امكانات متوخياً الوصول الى الحقيقة، إلا أن هذه الحقيقة ومهما اجتهد المؤرخ تبقى أسيرة الخيال نشأةً وصياغةً، فسرد هذه الأحداث وإبراز دقائقها من ابداعات خيال المؤرخ ؛لأن زمن حدوثها انقضى ولا يمكن استدعائه إلا من خلال الخيال الذي يمنحه مشروعية التوجيه نحو

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

الوجهة التي يريد، ودائما ما كان يتجه المؤرخون نحو السلطة ، فمعظم التواريخ المكتوبة اليوم هي تواريخ السلطة ،ولهذا نادى الكثير من المهتمين بالشأن التاريخي بإعادة كتابة التاريخ مرة أخرى ،ولن يفلحوا حتى وان كتبوا لأنهم يمثلون أو تحت تأثير سلطة أخرى غير تلك السلطة التي كتبت ذلك التاريخ ، فالتاريخ يبقى يدور في فلك السلطة بمفهومها العام، ومن ثمَّ لا يمكن أن نحكم ببراءة السرد التاريخي وإن بلغ من المصداقية ما بلغ.

أما في السرد الروائي فإن الكاتب يخلص الى الخيال أكثر من اخلاصه للواقع، إلا أنه يجتهد بل يركز جل اجتهاده على إغواء المتلقي قصد اقناعه بأن ما تتحدث عنه النصوص هو الواقع بعينه لوجود مصاديق ذلك الواقع في مسيرة الحدث السردي، وهذا ما تجلى في تقانة الميتاسرد وفي نصوص كثيرة عند عبد الخالق الركابي في (الراووق) ويوسف زيدان في روايته (عزازيل) وعلي بدر في (بابا سارتر) ، بل ويمتد توظيف الأدوات الاقناعية الى العتبات الروائية مثلما فعل سعود السنعوسي في روايته (ساق البامبو) إذ جعل لها واصفات وهمية بأسماء ابطال الرواية ذاتها، فكان لها مؤلف ومترجم ومراجعة لغوية ، وكأن الروائي يريد ايهام القارئ بأن هذا النص هو نص مترجم منقول من الفلبينية الى العربية ، في حين أنها في حقيقة الأمر لعبة سردية ، فالإغواء هنا من نوع آخر إلا أنه يصب في الرافد نفسه، فهو يريد أن يقنع القارئ: أن هذا النص المكتوب تحت توصيف رواية هو قصة حقيقية واقعية حدثت لشخص كويتي الأب فلبيني الام ، والأمر غير ذلك وإن كانت له مصاديق في الواقع .

إن وصف النصوص الابداعية بالواقعية هو أمر لا يتصف بالمصداقية ،وفي الوقت نفسه هو قتل لها ؛ وسبب ذلك أن الخيال يمنح المبدع سلطات واسعة تصل في بعض الاحيان الى خرق الواقع الدنيوي الى عوالم غير مأهولة كما في الروايات التي تعتمد العجائبية وقصص الخيال العلمي ومثال ذلك لا الحصر(رواية فرانكشتاين في بغداد) لأحمد سعداوي، ورواية (الرجل الآتي) لعبد الهادي الفرطوسي، في حين أن الواقع يُحجّم من هذه السلطات ويقوقعها في حدود المألوف والمقبول والمعقول ، وكل هذه الحدود تضيّق من دائرة الابداع مقارنة بما يمنحه الخيال من سلطات كبيرة يستطيع من خلالها المبدع دك حصون التابوات والمستحيل والمحال ،وكل ذلك يبقى رهين اغواء المتلقي واقناعه بواقعية الحدث السردي وإن كان غير مألوف ،ولعل من الأدوات الموضوعية الفاعلة في ترسيخ هذا التمثيل السري في مخيلة المتلقي ما توفره ثيمة الهوية للنص من امكانيات هائلة في اضفاء صبغة انسانية على العمل السردي.([2]) وهو ما نجده في الروايات التي تجعل من القضية الهوياتية موضوعاً رئيساً لها مثل(يا مريم) لسنان انطون و(ساق البامبو) على سبيل المثال لا الحصر.

الهوية الوطنية- الماهية

تُعد الهوية الوطنية من أهم الهويات التي تحظى باهتمام الباحثين والمفكرين ؛لما لهذه الهوية من تأثير كبير على مستقبل الأفراد والجماعات على حد سواء والتي تنضوي تحت مظلة الوطن الواحد في مكان جغرافي محدد ،وتُعرف بأنها مجموعة السمات التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين أفراد مجتمع ما ينتمون إلى وطن من الأوطان والتي تجعلهم يُعرفون ويتميزون بصفاتهم تلك عما سواهم من أفراد الأوطان الأخرى .(3) والهوية الوطنية هي (إحدى أهم القضايا الفكرية والسياسية بالنسبة لبناء الدولة ونظامها السياسي والاجتماعي وثقافتها اللاحقة...أنها تمس جميع المكونات الأساسية لبنية الدولة والمجتمع والاقتصاد والثقافة).([4]) فهي الركن الأساس في بناء الدولة وعليها يعوّل القادة في بناء

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

الأوطان والذود عنها ،ولذا بات الاهتمام بتفعيل الأدوات التي من شئنها تعزيز هذه الهوية وديموميتها في نفوس أبناء الشعب كبيراً؛ كونها الضامن الوحيد في الحفاظ على كينونة الدولة والمجتمع في آن واحد .

الانتماء للهوية الوطنية

لم يكن (عيسى) الشخصية الرئيسة في راوية (ساق البامبو) ([5]) بعيداً عن وطنه الكويت وهو في وطن أمه الفلبين ،فكان يتحين الفرص للقاء أبناء وطنه من السائحين بل ويجدُّ في البحث عنهم ، ويحاول أن يقدم نفسه بوصفه كويتياً ،ذلك الوطن الذي رفضه وهو بين يدي والده راشد الطاروف صغيراً ، ويأمل أن يعود إليه وهو كبيراً ليعيش على ربوعه ويتمتع كغيره من الكويتيين بخيراته **"كنت أطير فرحاً إذا ما علمت أن المركب يضم شباباً كويتيين.في البدء كنت أميز السياح العرب ،أما في ما بعد ،فقد أصبحت أميز الكويتيين من بينهم ."لأنني واحد منهم" ،كنت أحاول أن اقنع نفسي".**[(6)]

ويبقى شعور الاقناع يرافق(عيسى) حتى بعد دخوله الكويت، ولاسيما بعد ترشح هند الطاروف للانتخابات، إلا أن المفارقة تكمن في داخل البطل نفسه إذ يرى أن فائدة الطاروف للكويت أفضل منها للعائلة على الرغم من أن (عيسى) هو حفيد الطاروف، فهو هنا يؤكد انتماءه للوطن الكبير الذي يحاول أن يكون أحد ابنائه، لا لعائلة الطاروف الرافضة له:

"مهدي يأمل أن تفوز هند الطاروف في الانتخابات، لأن في فوزها، كما يقول، أمر جيّد للكويت. لكن خولة تقول:" هو أمر جيّد للعائلة بشكل عام.."، إن كان الأمر جيدا للكويت فهو أمر جيد لي أنا الكويتي. إن كان أمرا جيدا للعائلة.. لا أضنه يعنيني" .[(7)]

ومن مقومات الاحساس بالهوية الوطنية عند (عيسى) هو الاحساس بالانتماء لرمزية الوطن وأيقونة حضوره، فعلم البلاد وبيرقه هو هوية أبنائه وحضوره المرمز الذي يستحضر الوطن متى ما ظهر في الارجاء، وفي خضم سماع عيسى بخبر استشهاد والده راشد الطاروف يستحضر مراسيم دفن الشهداء فيسأل **"غسان إن كان والدي إلتحف بعلم بلاده مثلهم. هز رأسه إيجاباً. أحببت العلم، ومنذ تلك اللحظة أصبح علم الكويت..علمي".** (8)

"أكتفيت بشراء دراجة هوائية... سوداء أنيقة. قمت بتثبيت علم الكويت في مؤخرتها. ذلك العلم رغم رؤيتي له في كل مكان، منذ اليوم الأول لوصولي حين رأيته منكساً بالقرب من المطار، او محمولا في أيدي الناس ...لم يكن يعني لي شيئا إلى أن شاهدته يغطي رفاة الشاعر الكويتي الشهيد حين أخبرني غسان أن رفاة أبي كانت مغطاة بعلم الكويت بالطريقة ذاتها. منذ ذلك اليوم أصبح لعلم الكويت خصوصية لديّ ،تحرك شيئاً ساكناً في داخلي "[(9)].

فالشعور بالانتماء الحقيقي لهذا الوطن عند (عيسى) أنما يبدأ من هذه اللحظة، فهو يشعر أن والده راشد الطاروف هو أبن الوطن؛ ولأنه كذلك قدم روحه فداء لهذا الوطن، وفي المقابل يجد (عيسى) أن الوطن استقبل أبية وألبسه أعز ما يرمز إليه وكرمه بهذه المراسيم المهيبة فوشحه بأكرم دلالاته وهو العلم.

- **التمسك بالهوية الوطنية**

لم ترغب جوزفين والدة (عيسى) أن يتعلق ابنها ببلادها الفلبين، وقد حرصت أن ترضعه حب وطن أبيه الكويت، وقد شرعت بتعليمه بعض الكلمات العربية وهو في سن مبكرة، وتحكي له عن أبيه كثيراً:

"كانت تحرص بين الحين والحين أن تذكرني بانتمائي الى مكان آخر أفضل. وعندما بدأت النطق في سنواتي

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

الأولى ،كانت تلقنني كلمات عربية: "السلام عليكم..واحد اثنان ثلاثة..مع السلامة..أنا..أنت..حبيبي ..شاي قهوة" .وعندما كبرتُ كانت حريصة كل الحرص على أن تحببني بأبي ،ذلك الذي لم أره"[10]

بل كانت تراقبه عن كثب وتقطع عليه خلواته وتأملاته في وطنها، ولم يدرك (عيسى) هذا الأمر إلا متأخرا وقد جاء ذلك على هيئة انثيالات:

" لماذا كان جلوسي تحت الشجرة يزعج أمي ؟ أتراها كانت تخشى أن تنبت لي جذور تضرب في عمق الأرض ما يجعل عودتي إلى بلاد ابي أمراً مستحيلاً ؟.. ربما، ولكن ،حتى الجذور لا تعني شيئاً أحيانا ".[11]

لم يأت (عيسى) للكويت لكي يرحل عنها بل كان مصراً على البقاء فيها، فهي بلد الأحلام، بلد الحياة الكريمة، بلد الجاه والوجاهة، فقد كان يناضل من أجل البقاء في وطنه الذي يرفضه متأملاً أن يحظى بفرصة الاعتراف من قبل بيت الطاروف، ولذلك حاول أن يستقل عنهم ليعتمد على نفسه في تكفل احتياجاته الحياتية:

" لدي وظيفة.. ومبلغ لا بأس به من المال يكفي لأعيش بقية حياتي..هنا..

أشرتُ نحو الأرض متحدياً .أردفتُ...في الكويت"[12] .

فالكويت عند (عيسى) هو الوطن الذي حَلم في يوم ما أن يكون أحد ابنائه، وأن يحظى باعترافه لينعم بخيراته ويتمتع بسمعته؛ ولذلك حاول أن يتشبث به الى أبعد ما يستطيع:

"حماسهم لمرشحيهم في الانتخابات البرلمانية، تطوعهم للعمل في الحملات الاعلامية...اكتفيت بمراقبة وجوههم، مستمتعاً بذلك الحماس الذي نقلوه إليّ حتى نسيت وجهي الآسيوي وأنا احمل الاوراق بين يديّ، أثبتها بين زجاج السيارات وماسحات المطر، مرددا ما لم أتمكن من قراءته:"الكويت.. ليست للبيع". في تلك الأيام كنت كويتياً كما لم أكن في حياتي. كنت في ذروة شعوري بالانتماء إلى هذا الوطن ،ذلك الوطن الذي التحفت رفات والدي بعلمه ذي الألوان الأربعة". [13]

فـ(عيسى) الذي لم ير أبيه ولم يعرف عنه إلا من خلال أمه جوزفين وغسان ،إلا أنه أحبه كثيراً وتعلق به ولاسيما بعد لقائه بغسان بل وهو في أحلك الظروف ولاسيما عندما رفضته عائلة الطاروف كبيراً مثلما رفضته من قبل صغيراً، وكأن الزمن في هذا البرنامج السردي بقى ساكناً دون حراك ، وفي الوقت ذاته نجده يفصل بين هذه العائلة التي تضطهده وتجهد في عدم الاعتراف به وبين أبيه الذي ضحى بنفسه من أجل هذا الوطن **(ذلك الوطن الذي إلتحفت رفات والدي بعلمه)** ، ولاسيما عندما وقف على شاهد أبيه لأول مرة برفقة غسان ،وكأننا نشعر بألمه ، إذ يبكي بكاءً حاراً ، قد يكون شوقاً وقد يكون عتباً ولا أجده إلا شكوى من هول ما يتعرض له من أقرب الناس إليه (عائلة الطاروف)، فيقبض حفنة من تراب أبيه فيشمه ويتعفر به ،ويضمه الى ركبه ليرحل معه أينما رحل وحط:

"غسان لم يفُه بكلمة. عند وصولنا قرب منزل جدتي سألني:" هل أنت على ما يرام؟". " نعم أنا بخير"، أجبته.أشار بعينيه إلى يدي :" لماذا تحكم قبضتك هكذا ؟". فتحت كفّي:"حفنة من تراب أبي". [14]

إن رمزية تراب قبر راشد الطاروف لا تعني لـ(عيسى) مجرد تراب من قبر بقدر ما تتشظى إلى دلالات كثيرة أبلغها أن هذا التراب هو الصلة التي تجمع بين (عيسى) المسلوب هويته، والوطن الذي يقف متخاذلا أمام نصرته، وهو صاحب القربان الأكبر والمتضرر الأول من جراء استشهاد والده، ومن الدلالات الأخرى أنه يرمز الى التمسك بالوطن وترابه، فالوطن حاضر مع (عيسى) في

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

كل مكان، ولهذا تجد أن عيسى يحتفظ بهذا التراب بعد رحيله ومغادرته الكويت:

" تركت الكويت في أغسطس 2008 ،أي قبل ثلاث سنوات من اليوم ،تاركاً فيها كل شيء ماعدا قنينة زجاجية تحمل تراب أبي ،وعلماً كويتياً صغيراً كنتُ قد ثبّته إلى مؤخرة دراجتي الهوائية ذات يوم ،ونسخة من القرآن باللغة الإنكليزية وسجادة صلاة لا أدري متى سأستخدمها بانتظام..."[15].

لم يختزل (عيسى) الكويت في تراب والده راشد الطاروف فقط بل جعلها في عَلَمِها ودينها، فالكويت عنده أشياء كثيرة لا يمكن فك عراها، ولا يمكن اختزالها في شيء واحد وإن غلا ذلك الشيء وكبر، ولم تكن مغادرة (عيسى) الكويت مقهوراً مسلوب الهوية هي خاتمة المطاف في رحلة الانتماء الهوياتي بل نجده يصل إلى قمة الانتماء الحقيقي لهذا الوطن:

" رعشة تسللت من أعماقي إلى أطرافي ما إن شرع لاعبو المنتخب الكويتي بترديد النشيد الوطني:" وطني الكويت سلمت للمجدِ.. وعلى جبينك طالع السعدِ.. "". وجدتني اترنم بلحن النشيد في حين كانت الكاميرا تنتقل بين وجوه اللاعبين .فرغ اللاعبون من ترديد نشيدهم ،وفرغت أنا من ترديد لحنه"[16].

إن الانتماء للهوية الوطنية لا يتوقف عند عيسى راشد الطاروف بل يمتد الى مولوده راشد عيسى راشد الطاروف من حيث السحنة والأوصاف بل وحتى الاسم، فالكويت تحضر بكل حمولتها في الفلبين على الرغم من كل محاولات التنكيل والتقزيم والاستحقار والقهر والسلب الهوياتي:

"ولدي الذي توقعت أن يأت بعينين زرقاوان وبشرة بيضاء جاء بملامح مغايرة ..بُسمرة عربية ،وعينين واسعتين تشبهان عينّي عمته..خولة"[17] . فـ (راشد عيسى) جاء بسحنة عربية كويتية خالصة وهو من أبوين فلبيني السحنة والنشأة.

"ارادت ميرلا أن تسميه Juan، كنت قد أوشكت على الموافقة لولا أنني تذكرت أننا ننطقه في الفلبينية كما في الإنكليزية هوان، وفي البرتغالية جوان، وفي العربية يصبح كما الإسبانية خوان. اعتذرت لـ ميرلا أن أطلق على ولدنا كل هذه الأسماء ،لأن اسمه ،من قبل مولده ..راشد" [18].

يحمل النصان أعلاه مفارقة لافتة ليس فيهما وحسب وإنما في الرواية كلها ، فـ(راشد)المولود الجديد يستعيد سحنته العربية على الرغم من أن أبويه ينسلان من السحنة الفلبينية فلا وجود لعلاقة التماثل الشكلي بأبويه ، إلا أن ولدهما يستعيد سحنته ويؤكد هويته الكويتية ،وكأنه ولد في بيئة عربية ومن والدين عربيين على النقيض من (عيسى) الذي لا ينتمي الى الملامح العربية مطلقاً على الرغم من أن أباه كان عربياً خالصاً ،وأنه ولد في بيئة عربية ،وكأن الروائي أراد أن يوصل لنا أن الانتماء للوطن (الكويت) هو انتماء لا يمكن انتزاعه ولابد له من التجلي في صور شتى فقد يكون من خلال السحنة أو من خلال الشعور بالولاء لهذا الوطن من خلال العلم أو النشيد الوطني ، فهو انتماء لا يقف عند حدود البيئة والثقافة وإن كان المولد في الفلبين من أبوين يحملان السحنة ذاتها .

- **الاعتراف بالهوية الوطنية**

على الرغم من إصرار (عيسى) على اثبات هويته الكويتية أمام (نورية) الساعي الأول لسلب هذه الهوية في الرواية، الا أن صوت الانصاف يأتي مهزوماً يلوذ باللحظات الميتة في الحدث السردي، وهذا ما نجده في

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

موقف (عواطف) من الاعتراف بهوية (عيسى)، ومن قبلها كانت هند:

"انصرفت نورية من شقتي سمكة قرش منهزمة. ثبتت عمتي عواطف عباءتها السوداء على رأسها.عند باب الشقة قبل أن اطبقه التفتت إلي بوجهها الباكي:"والله ..والله آي آم سوري". مسحت وجهها بجزء من عباءتها تقول:" أنت كويتي..أنت ابن أخي..ابن راشد .." من المصعد المفتوح جاء صوت نورية مرتفعا:" عواطف!". قالت قبل أن تتبع أختها: " سامحني..ليسامحني الله"[19]. فالاعتراف هنا لا قيمة له عند (عيسى)؛ لأنه لا يقدم شيئاً، فهو شهادة في الخفاء، ما يحتاجه (عيسى)أن يكون الاعتراف واقعا عملياً من قبل عائلة عائلة الطاروف نفسها، بأنه ابن راشد الطاروف، ومن ثم تأتي مقبولية الناس له على أنه أحد أبناء الكويت، ولاسيما أن موقفه القانوني سليماً.

محاولة أثبات الهوية الوطنية

يسعى (عيسى) الكويتي أوراقاً، الفلبيني سحنة الى اثبات هويته من خلال المشاركة الفاعلة في رسم مستقبل الكويت الديمقراطي بانضمامه الى الخلية الشبابية التي تبنت التثقيف الى انتخاب السياسيين الشباب ومنهم هند الطاروف: **"اكتفيت بمراقبة وجوههم، مستمتعاً بذلك الحماس الذي نقلوه إليّ حتى نسيت وجهي الآسيوي وأنا احمل الاوراق بين يديّ، أثبتها بين زجاج السيارات وماسحات المطر".** [20] المتذبذب انتماءً : **"ظهور مشعل على هذا النحو منحني فرصة الاقتراب من "كويتيتي" التي لم أشعر بها قط"** [21]. كغيره من المواطنين اللذين يعيشون في الكويت ويناضلون من اجل الحصول على الجنسية الكويتية ونريد بهم (البدون) ، فهو مستهدف في هويته دوماً من قبل الناس قبل مفارز الشرطة ، وعلى الرغم من أن أوراقه الثبوتية تقر بكويتيته إلا أنه لا يشعر بهذا الانتماء اجتماعياً لا على مستوى عائلة الطاروف التي تمثل الأعراف والتقاليد الاجتماعية التي تُسير المجتمع الكويتي والتي تعتبره عاراً عليها وخطيئة اقترفها في يوم ما راشد الطاروف ، ،ولا على مستوى التداول الاجتماعي بحكم شكله الفلبيني الذي يوحي بلاكويتيته لأول وهلة ، ومما يلاحظ هنا أن اثبات هوية (عيسى) الكويتية هو أكثر قبولا عند جيل الشباب :

"اقتربت منه مادّا كفي أهم بمصافحته. رفع ذراعيه إلى الأعلى. نهرني مشمئزا:" ابتعد لا تلمسني..لست من أولئك الذين تبحث عنهم!" . أجفلت. أوشكت أن اقول "بل أنت أحدهم.. أين البقية؟" ولكنني خشيت أن أؤكد له فهمه الخاطئ، خصوصا انه لم يكن بكامل وعيه كما بدا لي. أدار ظهره بهم بالخروج يغمغم بغضب. صحتُ به: " أنا عيسى!". مضى في السير من دون أن يأبه لي. واصلت "هيي!" .."جزيرة بوراكاي".. " جعة الـ ريد ـــ هورس!". توقف الشاب فجأة. ألتفت نحوي .أشار بسبابته إليّ ممعنا النظر في وجهي :" أنت؟" . ابتسمت مؤكدا. عاد إلى الهو داخل البناية. سألني:" الكويتي" Made in Philippines". أجبته ضاحكاً: " نعم.. نعم". استطرد يسأل، في حين سبابته موجهة إلي لا تزال:" أنت الـ؟ ". مال بجذعه الى الأمام هازا كتفيه.. هززت رأسي :" نعم ..نعم" ..انفجرنا ضاحكين" .(22) يلحظ من النص أعلاه أن التقبل الاجتماعي لـ (عيسى) في المجتمع الشبابي الكويتي هو أيسر بكثير مقارنة بأصحاب التقاليد والأعراف التي تتمسك بها عائلة الطاروف بل لا مجال للمقارنة هنا ، فالحكم في كويتية شخص ما يرجع لما يمتلكه من أوراق ثبوتية رسمية وليس لسحنته أو لجنسية والدته :

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

" تحدث إليهم مشعل بالعربية:" صديقنا الكويتي". بين ابتسامات واستغراب كانت ردود أفعالهم. انفجر بعضهم ضاحكاً في حين التف الجميع حولي غير مصدقين: "انت؟ " .." لم أصدق إنك كويتي".. "[23].

وهذا كناية عن أن التقبل الاجتماعي لأصحاب اللاهوية سواء أكانوا على شاكلة عيسى أو على شاكلة البدون والذين لا يحضون بالاعتراف الهوياتي من قبل السلطتين الاجتماعية والسياسية، يقف على النقيض منه جيل الشباب المتطلع للديمقراطية الذي لا يجد مشكلة في ذلك، بدلالات عدة عرضها السنعوسي منها تقبل هؤلاء الشباب لـ(عيسى)، وتقبل (هند) الطاروف لـ(غسان) البدون أن يكون زوجاً لها، وقبله علاقة الصداقة الحميمة التي كانت تجمع بين راشد الطاروف الكويتي الهوية وغسان الكويتي البدون هوية.

أما على المستوى الحكومي الرسمي المتمثل بموظفي الدولة في مؤسساتها الرسمية فالأمر مختلف تماماً، فالهوية هي عبارة عن أوراق ثبوتية متى ما حاز عليها الشخص فهو كويتي بغض النظر عن شكله وانتمائه وولائه؛ ولذا كان على (عيسى) أن يحمل معه كل ما يُثبت هويته الكويتية من أوراق، وإن كانت هويته الشكلية (السحنة) تسبق هويته الورقية ولاسيما في مرحلة الفرز الهوياتي لأول وهلة، فحضور بعض مقومات الهوية الذاتية ومنها الشكل والسحنة واللون هي هوية الأشخاص الأولى:

"فتحتُ عيني على اتساعهما:" ولكنني كويتي ..لا أحتاج إلى تأشيرة "ابتسمت: "عليك أن تثبت ذلك ..بعد أن تمضي وقتا في الحجز"[24]. فالأوراق الثبوتية يجب أن تكون حاضرة في كل لحظة، وهي الفيصل في اثبات الهوية في مؤسسات الدولة ولاسيما لشخص لا ينتمي شكلا لملامح الشخصية الكويتية.

- **ضياع الهوية الوطنية**

مما لا شك فيه أن شعور الانتماء للوطن والولاء له هما الدعامتان الرئيستان اللتان تقوم عليهما الهوية الوطنية، فهذه الهوية هي التي (تحث المشدودين بها وإليها على بناء الوطن وتنميته... والتصدي للأخطار التي تهدده خارجية وداخلية، وخاصة تلك التي تكون نابعة من سوء فعل الذات، حائلة دون صون عزة أبناء هذا الوطن واحترام إنسانيتهم، وضمان نيل ما لهم من حقوق وأداء ما عليهم من واجبات ... وعدالة تتحقق بها المساواة ... من غير أي شكل من أشكال التمايز والتفاضل ، إلاَّ ما كان راجعاً إلى مستوى الدفاع عن مكونات الهوية وما تفرضه درجة هذا الدفاع من جهود وتضحيات لاشك أن الناس في تقديمها متفاوتون)(25) وعلى هذه التضحيات عوّل (عيسى) كثيراً فهو أولى بقربان ال الطاروف لأن من ضحى بنفسه هو راشد الطاروف والده الذي حرمته هذه التضحية أن يعيش بأحضان والده ووطنه ، فالوطن عند (عيسى) هو أحلام وانثيالات، هو تزاحم أفكار، هو الشيء واللاشيء في وقت واحد ، هو الوجود واللاوجود :

"الكويت.. حلم قديم.. لم أتمكن من تحقيقه رغم وصولي إليها وسيري على أرضها. الكويت بالنسبة لي، حقيقة مزيفة.. أو زيف حقيقي.. لست أدري، ولكن، للكويت وجوه عدة.. هي أبي الذي أحببت.. عائلتي التي تتناقض مشاعري تجاهها.. غربتي التي أكره. انتمائي الذي أشعر به إذا ما أساء أحدهم إلى أبنائها بصفتي واحدا منهم.. الكويت هي خذلان أبنائها لي بنظرتهم الدونية.. الكويت هي غرفتي في ملحق بيت الطاروف.. مقدار كثير من المال.. وقليل من الحب لا يصلح لبناء علاقة حقيقية.. الكويت شقة فارهة في الجابرية يملؤها الفراغ ..الكويت زنزانة ظالمة مكثت فيها يومين

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

مـــن دون ذنـــب"[26] . وفـي ظـل كـل هـذه المتناقضـات والمتضـادات يصـل (عيسـى) الـى أن وطنـه ووطـن أبيـه الكويـت إلا أنهـا " **توصـد أبوابهـا الأخيـرة ..وأنـا الـذي حسـبتني منهـا . شـعرت فجـأة أن هـذا المكـان لـيس مكـاني ،وأنني كنـت مخطئـا لابـد حـين حسـبت سـاق البـامبو يضـرب جـذوره في كـل مكـان"**[27]. فـلا جـذور لـ(عيسى) في هـذا الـوطن على الـرغم مـن أوراقـه الثبوتيـة التي تقـر لـه بكويتيتـه ، فـالوطن عنـده انتمـاء اجتمـاعي وعائلـة ينتمي إليهـا وتعتـرف بوجـوده ، تشـعر بـه وتتفقـده كمـا تفتقـد والـده راشـد الطـارف ، وبغيـر ذلـك يشعر(عيسـى) أن وطنـه الكويـت " **بحجـم غرفـة إبـراهيم سـلام.. ضـاقت أكثـر .. أصـبحت بحجـم علبـة ثقـاب.. لـم أكـن أحـد أعوادهـا. تذكرت كلمتهم المتداولة .. الكويت صغيرة** " ([28])

إن تجريـد (عيسـى) مـن هويتـه الاجتماعيـة التي يمكـن عـدّها البوابـة الرئيسـة لشـعور الفـرد بهويتـه الوطنيـة وبوجـوده داخـل إطـار الـوطن بوصـفه عنصـراً فـاعلاً في بنـاء الدولـة ،هـو في حـد ذاتـه ادانـة كبيـرة لـذلك المجتمـع ، فالفعـل الـذي يتسـم بـه مجتمـع مـا هـو جـزء مـن ثقافتـه ([29])، فهـذا المجتمـع وبعـد كـل المراحـل التوعويـة التـي قطعتهـا المجتمعـات الكونيـة ولاسـيما في مجـالات التنميـة البشـرية وحقـوق الانسـان مـازال يتمسـك بتقاليـد باليـة تسـهم الى حـد كبيـر في إعاقـة عجلـة التطـور الحضـاري على الـرغم مـن الإنجـازات الديمقراطيـة الكبيـرة التـي قطعتهـا الكويـت مـن خـلال تأسـيس المؤسسـات الدسـتورية وتـوفير المنـاخ السياسـي مقارنـة بـدول الخليـج الأخـرى ، فالسـلطة الاجتماعيـة في هـذا البلـد هي السـلطة الأعلى كعبـاً والتي تفـرض هيمنتهـا علـى كـل السـلطات ومنهـا السـلطة السياسـية ، فقضـية البـدون اليـوم هـي قضـية فـرض ارادات السـلطة الاجتماعيـة علـى القـرار السياسـي علـى الـرغم مـن التعـاطف الكبيـر التي تبديـه السـلطة الحاكمـة المتمثلة بأمير البلاد إزاء أبناء الكويت جميعاً.

الهوية الدينية

تُعـدُّ الهويـة الدينيـة مـن الهويـات الكبرى، ولا نغـالي إذا قلنـا: إنهـا الهويـة الأكثـر حضـوراً بـين النـاس بحكـم انتمـاءاتهم الدينيـة، فقـوة الـولاء للعقيـدة الدينيـة أصـبح يفـوق ولاء الشـخص لأمتـه([30]) ليُصـبح هـذا الانتمـاء (المبـدأ الـرئيس–أو الوحيـد – لتصـنيف أهـل هـذا العـالم)([31])، وهـذا يجـوّز لنـا أن نصـفها بالهويـة العالميـة بنـاءً على افتراضـات بعـض الصـيغ الفكريـة للفلسـفية الجماعيـة التي تـرى أن الهويـة المشـتركة لابـد أن تكـون الهويـة المهيمنـة والرئيسـة ،وربمـا الوحيـدة ([32]) ، فالهويـة الدينيـة تجـاوزت حـدود الـدول والاقـاليم والقـارات، فهنالـك الهويـة المسـيحية والهويـة الإسـلامية والهويـة اليهوديـة وغيرهـا مـن الانتمـاءات الدينيـة الأخـرى التـي تنتشـر في كـل اصـقاع العـالم ، فـالوجود الإنسـاني اليـوم تغلـب عليـه صـفة التـديين ممـا ألقـى هـذا بضـلاله على السـاحة الثقافيـة والفكريـة وأدى الى انتشـار تلـك التحليلات التي تنظـر الى الأفـراد بنـاءً على انتمـاءاتهم الدينيـة ([33])، وتعـود هيمنـة الـدين على التفكيـر البشـري لنجاحـه في الاجابـة عـن تسـاؤلات كثيـرة وقـف الانسـان حـائرا أمامهـا بحثـاً عـن الطمأنينـة ، فكانـت إجابـات الـدين تلبـي هـذا المطلـب اللاشـعوري . وقـد عـدَّ محمـد عمـارة الـدين مـن أهـم العناصـر التي تحـدد الهويـة إذ يصـفها بأنهـا الهويـة الأكثـر معنى في حـروب الهويـات.([34]) ولـذا نجـد أن الروائـي سـعود السنعوسـي لـم يغفـل أهميـة هـذه الهويـة بـل جعلهـا تسـاير الهويـة الوطنيـة وإن كانـت أقـل منهـا حضـوراً كتابيـاً إلا أنهـا توازيهـا مـن حيـث الأهميـة في البنيـة الفكريـة المجـردة في التكـوين السـردي في هـذه الروايـة ، فلـم يكـن (عيسـى) بعيـداً عـن دين أبيـه كمـا هـو لـم يكـن بعيـداً عـن دين أمـه

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

ولاسيما في المرحلة الأولى من حياته في بلادها الفلبين ، فمنذ ولادته أذّن في أُذنه والده راشد الطاروف " **"الله أكبر.. الله أكبر" ... هو النداء ذاته الذي همس به أبي في أذني اليمنى فور ولادتي ..هو الصوت الأول "** ([35])، " **إن أبي همس بنداء صلاة المسلمين في أذني اليمنى فور ما حملني بين يديه ،في المستشفى ،بعد مولدي "** ([36]) فحضور الدين في التكوين المعرفي لـ(عيسى) حضر في أولى لحظات ولادته من خلال طقس ديني يقوم به المسلمون عند ولادة أولادهم ايماناً منهم بأهمية هذا الطقس في ترسيخ الانتماء الديني في عقل المولود وهو من باب التبرك والتفاؤل، فالالتزام بالطقوس الدينية عند المسلمين يفوق كل التزام آخر لارتباطه بديمومة الحياة وهو من باب التوسل بالله سبحانه وتعالى، فهم يطرقون كل السبل التي من شأنها أن تقربهم من الله وتقي اطفالهم كابوس فكرة الفقد. إلا أن صمود هذا النداء في عقل (عيسى) لم تكتب له الديمومة بحكم تبعثر حياته ورفضه من قبل عائلة الطاروف مما حدى الى انتقاله الى الفلبين بلد أمه (جوزفين) إذ بدأ برحلة جديدة مع دين جديد **"... والدتي، فور وصولنا... تحملني الى كنيسة الحي الصغير ليتم تغطيسي في الماء المقدس في طقوس تعميدي مسيحيا كاثوليكيا."** ([37]) فالطفل (عيسى) بين انتمائين دنيين مختلفين شكلا عقدة في تلمس هويته الدينية وانتمائه الديني ليس في مرحلة الطفولة فقط بل حتى في مرحلة الوعي المعرفي الناضج فيما بعد" **في أذني اليمنى صوت الأذان يرتفع .في أذني اليسرى قرعُ أجراس الكنيسة ."**([38]) فهذا الصراع الهوياتي أفقد (عيسى) الوقوف على حقيقة انتمائه الديني ،فهو يتذبذب بين انتماءين مختلفين أفقداه انتماءه الحقيقي لهويته الدينية، إلا أن هذين الانتماءين من جانب آخر كانا قاربا نجاة بتصور والداه ، فكل واحد منهما له رؤيته الخاصة في زجه بديانته، فراشد الطاروف ينطلق من مبدأ ديانة الوالد هي ديانة الأولاد ، أما أمه فكان همهما زجه في مجتمع قد لا يتقبله ما دام يختلف معه دينياً ،مرجأة هوية أبيه الى وقت آخر لابد أن يأت **"أهملت والدتي تربيتي دينيا ،على يقين بأن الاسلام ينتظرني مستقبلا في بلاد أبي ..."** ([39])

الهوية الدينية البديلة

لم يكن أمام (جوزفين) والدة (عيسى) بعد عودتها من الكويت خيارا آخر غير أن تجعله يُدين بالديانة المسيحية كي يكون أكثر مقبولية في مجتمعه ولاسيما في مرحلة الطفولة، على الرغم من أنها تعي من أن (عيسى) قد لا يتقبل فكرة انتمائه الديني هذا ولاسيما عندما يصل الى مرحلة النضوج الفكري، إلا أن هذا الانتماء الديني الطفولي أخذ وقتاً طويلاً ليتحول فيما بعد الى أسئلة تؤرقه **"هل يجعل مني التعميد مسيحياً، وهل قبلتُ بالمسيحية ديناً في طقس حضرته في حين كانت ذاكرتي لا تتسع لشيء بعد؟ لكل منا دينه الخاص ،نأخذ من الأديان ما نؤمن به ،ونتجاهل ما لا تدركه عقولنا ، أو نتظاهر بالإيمان ، ونمارس طقوساً لا نفهمها ،خوفاً من خسارة شيء نحاول أن نؤمن به"**([40]) هذه الأسئلة والاستفهامات هي التي كانت تدور في مخيلة (عيسى) بل كانت تؤرقه وهي مصدر قلق عنده وربما من باب التشكيك في هذا الانتماء، أو أنه يفلسف قضية هذا الانتماء بقصد الإفلات من ربقة ديانته المسيحية من خلال اختلاق الأسباب لهذا الانتماء على الرغم من أنه اشتغل بهذه الهوية الدينية وعمل بطقوسها:

"انتصبت أمام تمثال السيدة العذراء. ضممت كفي أسفل ذقني وشرعت في الصلاة. أصوات الأمواج من حولي، على ارتفاعها، بثت في داخلي شيئاً من الهدوء ...

أنا لا أبكي يا أمنا مريم ..

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

أخاطبها. أرفع رأسي أنظر في وجهها.

- **هذه القطرات من مياه البحر.. لا تقلقي..**

لا تنظر إليَّ. عيناها تنظران إلى شيء بعيد ورائي. ارتقيت الدرجة أمام المحراب. اصبحت قامتي بمستواها. قربت وجهي فوق كتفها الأيسر، وهمست في أذنها:

- **ولكنني سوف أبكي ..إذا ما طال بي البقاء هنا "** (41)

لم يكن الانتماء الديني أو الهوية الدينية هي أكثر ما يقلق (عيسى) مقارنة بما كان للمكان (الوطن) ،فهو يشعر بغربة المكان أكثر من شعوره بغربة الانتماء للدين، ومرد ذلك من وجهة نظره ، أننا (**نأخذ من الأديان ما نؤمن به ،ونتجاهل ما لا تدركه عقولنا ، أو نتظاهر بالإيمان ، ونمارس طقوساً لا نفهمها ،خوفاً من خسارة شيء نحاول أن نؤمن به**) وكأن هذا الانتماء يأتي متأخرا في سُلم الانتماءات الأخرى ، فعودة (عيسى) الى بلد أبيه الكويت هي عودة البحث عن الوطن لا البحث عن الدين ؛ولعل سبب ذلك يعود الى أن (عيسى) كان يستشعر بغربة الوطن لا الدين ؛لأنه كان يدين بالديانة المسيحية في وطن أمه الفلبين ، فنجده يتوسل بالمسيح ويصلي له ليسر أمره في بلده الكويت ، فتوسلاته هي توسلات من يؤمن بهذه الهوية.

" أبانا..إني عائد إلى حيث وُلدت ..إلى بلاد أبي الذي لم أره.. إلى مصير أجهله ولا غيرك يعلمه.. تقول أمي أن حياة جميلة تنتظرني هناك.. ولكن، لا أحد يعرف ماذا ينتظرني سواك. أبانا الذي في السماء.. في يدي جوازي الأزرق.. وفي قلبي شيء من إيمان أخشى ألا أحافظ عليه.. أعنّي على الإيمان بك.. وابق معي في سفري.. وأرشدني إلى ما فيه الخير وبدّد شكوكي.. أبانا الذي في السماء ..هل أنت حقا في السماء ؟أجبني ..بحق ملائكتك ..بحق ابنك المسيح والعذراء" (42)

قَدِم (عيسى) للكويت وهو يحمل هذه الهوية بين جوانحه، وكأنه مسيحي أصيل فلا يعرف غيره على الرغم من انتمائه العائلي للديانة الإسلامية، إلا هذا الانتماء الذي زرعه راشد الطاروف في أولى لحظات حياة (عيسى) قد بدده الزمن الطويل والحياة المضنية التي قضاها في الفلبين والمجتمع الذي كان يعيش بين أحضانه الذي يدين بهذه الديانة.

استعادة الهوية الدينية

في خضم الأحداث التي تعصف بمخيلة (عيسى) بعد دخول بلده الكويت واستقراره في هوامش بيت عائلة الطاروف، ثمة شعور غريب يلامس قلبه ويبعث الطمأنينة في نفسه وهو يستقبل موجات صوت بدى مألوفاً لديه، إنه نشيد المسلمين:

" "الله أكبر.. الله أكبر"..صوت نداء الصلاة انطلق من مسجد صغير يبعد حوالي خمسين متراً عن بيت جدتي ،تبعته نداءات أخرى بعضها قريب والآخر بعيد ."الله أكبر.. الله أكبر".. لأول مرة أستمع إلى هذا النداء بهذا القرب والوضوح. شعور غريب لامس روحي في تلك الأثناء. شيء بث الطمأنينة في نفسي. تبدو كلمات النداء مألوفة لديَّ رغم عدم فهمي للغتها. شيء ساكن بداخلي أخذ يتحرك، هو النداء ذاته الذي همس به أبي في أذني اليمنى فور ولادتي..هو الصوت الأول.. أتراه لامس همسات أبي الساكنة في داخلي؟ صوت حفز فضولي لدخول المسجد القريب من منزل جدتي، ذلك الفضول الذي لم أشعر به قط إذا ما مررت بجانب المسجد الذهبي أو المسجد الأخضر في كويابو في الفلبين ". (43) هذا الصوت هو ذاته الصوت الذي صدح في إذنه في يومٍ ما راشد الطاروف، إنه صوت الأذان ، إلا أن هذا

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

الأذان بدى مختلفاً عن غيره من مساجد في الفلبين، فهوية المكان أضفت عليه هذا التمييز، ولاسيما أنه المكان ذاته الذي اخترقت فيه لأول مرة نبرات صوت الأذان مسامعَ عيسى راشد الطاروف، إنه إعادة انتاج لهوية دينية مندثرة لم يبق منها الا شريط من الذكريات يقبع في أعماق الذاكرة ، وقد عفى عليها الزمن ، إنه استرجاع لمحفوظٍ نادرا ما يستجيب لدعوة الشعور.

حاول (عيسى) أن يستكشف هذا الشعور الغريب المميز من خلال المكان الذي يبعث بهذه الموجات الصوتية الروحانية وما تفعله في النفس، فذهب يستطلعه "**داخل تجويف المحراب وقفت قريبا من الجدار. أستمع الى صوت انفاسي بوضوح. ضممت كفي أسفل ذقني. ثم تذكرت الشاب في الزاوية. مددتُ كفي أمام وجهي كما يفعل. أغمضتُ عيني:"الله أكبر.. الله أكبر.. لأنك أكبر من كل شيء وأعظم، استمع لكلماتي.. لست متأكدا من طهارة جسدي بالطريقة التي أخبرتني بها خولة.. ولكن.. لأنها زيارتي الأولى إلى بيتك.. تجاوز جهلي واقبل صلاتي.. الله أكبر.. الأعظم.. يبدو بيتك بسيطا ليس كما تصورت.. بيتك على بساطته جميل ونظيف.. اجعل قلبي يطمئن إلى وجودك فيه، فإن قلبي بسيط أيضا، وأعدك أن يكون نظيفاً.. فهل لك أن تسكنه مثلما سكنت قلب عمتي عواطف؟**

الله أكبر..أشعر بقربك كما لم أشعر به من قبل ..لأننا ،أنت وأنا ،هنا وحدنا ،لا شيء في بيتك يدعو للتأمل سوى روحك التي تسكن المكان ..لا صور للنبي محمد بإطارات مذهبة ولا تماثيل ..نحن لسنا بحاجة إلى ذلك ..لأننا في حضرتك ..ولأنك الله ..الأكبر"[44] لأول مرة يلتقي (عيسى) بربه فيخاطبه مباشرة وكأنه يعرفه ، ويتوسل به وكأنه يستودع نفسه عنده ، فعلاقته بربه هي علاقة ملؤها المحبة وعمادها الصدق والبساطة ، فينبهر ببيت الله فيجده متواضعاً جدا ،لا صور مذهبة ولا تماثيل ، فـ(عيسى) يحاول أن يعيد انتاج علاقته بالله التي أقامها راشد الطاروف لأول مرة من خلال التوحد مع الله سبحانه ، وكأنه في هذا النص يصل الى ما وصل إليه المتصوفة ،فادراك الله سبحانه هو ادراك نفسي قبل كل شيء إذ يستشعر المرء بوجوده بقربه في أي وقت وفي أي مكان، فهو يحاول استرجاع هويته الدينية التي سلبتها منه السلطة الاجتماعية بعدما رمت به في غياهب الغربة فيعود ليتلمس طقوسها وتقاليدها بعدما ادرك مكنوناتها النفسية ، بيد أن حضور الجانب الشكلي ضرورة في إثبات وتسويق هويته الدينية .

يستشعر(عيسى) عناية الله سبحانه وكأنه يرعاه ويسدد خطاه في كل خطوة يخطوها ، فيقدم له الأدوات المعرفية التي من شأنها رعاية هذا الانتماء وإعادة انتاجه: "**إبراهيم شاب طيّب وبسيط جدّا. وجدتُ فيه صديقاً مخلصاً. لم أطلبه شيئاً قط إلا وهبَّ لمساعدتي .هو يناديني بـ أخي، وحين سألته عن السبب أجاب :" المسلم أخو المسلم" .كنت ممتناً لشعوره تجاهي .لم أقل له أنني لست متأكداً من كوني مسلماً بعد، فأنا لا ازال اتلمس طريقي، ولكنه حتما، إن أنا دخلت في الاسلام ،سوف يكون هو أحد الأسباب في ذلك . ثلاثة أشياء تعرفت إليها من خلال إبراهيم حببتني بالإسلام وعرفتني إليه أكثر ..فلم "الرسالة" ..كتاب "الرحيق المختوم" والمعاملة الطيبة والاهتمام الذي يبديه إبراهيم تجاهي**"(45) يجمل (عيسى) في هذا النص العوامل التي كان لها الأثر الكبير في استعادة هويته الإسلامية ومن أهمها الإخلاص والمحبة التي توطد علاقة الانسان المسلم بأخيه المسلم ، والجانب السلوك المتمثل بمعاملة الناس بالحسنى ، فضلا عن التراث التاريخي والفكري ، ويشير هنا الروائي سعود السنعوسي في هذا

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

النص الى جانب مهم من طرق توصيل الأفكار الإسلامية وتسويقها للأخرين ، ونريد بها التوصيل المرئي من خلال الصورة المرئية السينمائية فهي موصل يحظى بمقبولية واسعة وتأثير فعّال على المتلقي لا يقل أهمية عن التراث الفكري والسلوك الاجتماعي .

"كانت علبة DVD تحمل صورة للمثل أنتوني كوين تعلو رأسه عمامة سوداء ،وفي الأعلى اسم الفليم "الرسالة" .ما كدنا نصل الى الباب حتى طلب منا أحدهم الانتظار. كان الرجل العجوز الذي يقرأ القرآن في الزاوية. تقدم إلينا بخطوات سريعة ،قال غاضبا: "المسجد للصلاة وليس لتبادل الافلام ..هذا حرام! " .سحب الفلم من بين يدي بطريقة فظة .أخذ يتفحصه ويقلبه بين يديه .أعاده إلي من دون أن يفُه بكلمة. ربَّت على كتفي ثم أدار لنا ظهره تاركاً المسجد"[46] . لم يعرف (عيسى) دين أبيه إلا من خلال فيلم الرسالة الذي أوصل قصة الإسلام الى أكثر بقاع العالم على الرغم مما أُثير عليه من اعتراضات المعترضين، إلا أنه استطاع أن يوصل ما عجزت عن إيصاله أجيال كثيرة ومحاولات فكرية عدة، وانماط سلوكية متنوعة.

يكتشف (عيسى) ثمة طريق آخر للوصول الى الله سبحانه ومناجاته كما كان يفعل في الفلبين مع السيد المسيح والسيدة العذراء لكن لابد من طقوس لهذا الاتصال:

"انتصبت واقفاً على سجادتي :"الله الأكبر.. الله الأعظم.. كنت كريماً معي ..أرسلت لي مجانين كنت أحلم بلقائهم.. ممتن أنا لك يا إلهي.." . انحنيت بجذعي إلى الأمام مثبّتا كفيّ على ركبتّي:" الله الأكبر.. الله الأعظم ..أنتظر رسالة منذ مدة ..أما آن وصولها؟" . انتصبت واقفا: "حقق لي أملي ولا تفجعني بموت من أحب " .ارتميت على الارض ألامسها بجبيني:" لدي مال كثير..لدي أصدقاء رائعون .." .اعتدلت بجلستي :" الله الأكبر..الله الأعظم ..أصلي لك صلاة مؤمن راجياً أن تقبل صلاتي ..آمين" .أدرتُ وجهي يمينا..يسارا..خاتماً صلاتي"(47). إنها صلاة من نوع آخر، إنها صلاة الامنيات والمحبة والصدق، فعلاقة(عيسى) بخالقه هي علاقة مختلفة تماماً عن علاقة الآخرين بربهم (**..أشعر بقربك كما لم أشعر به من قبل ..لأننا ،أنت وأنا ،هنا وحدنا ،لا شيء في بيتك يدعو للتأمل سوى روحك التي تسكن المكان**) ،فالصلاة عنده لا يمكن اختزالها بحركات وطقوس يقوم بها العبد ، إنما هي علاقة تأملية بين الله وعبده ، هكذا يفهم (عيسى) علاقته بخالقه والتي تتكفل بديمومتها هذه الكلمات الصادقة.

- **قلق الهوية الدينية**

تعج الساحة الإسلامية اليوم بتنظيمات إسلامية كثيرة – تؤمن أو تدعي الإسلام - تتنوع انتماءاتها وولاءاتها بناءً على مصالح قادتها وعلى انتماءاتهم الأيديولوجية والفكرية ، فالمجتمع الإسلامي اليوم يعيش حالة مرضية سرطانية تتوالد بسرعة مخيفة ، إذ استطاعت قيادات التنظيمات الإرهابية التي تدعي الإسلام من فرض سطوتها الفكرية على عقول الشباب المنتمي إليها من مختلف الانتماءات والجنسيات، فبدى هؤلاء وكأنهم فاقدي الإرادة والعقل ، وقد استشعر(عيسى) بطل روايتنا(ساق البامبو) هذا الأمر فوقف حائراً إزاء هذه الهويات التي تصطبغ بالإسلام ، وكل واحدة منهما تدعي الإسلام الحقيقي ، فتجلت أمامه أربع هويات: الأولى هي التي يعرضها فيلم الرسالة لمخرجه مصطفى العقاد ، والثانية هي هوية الجماعة الاسلامية التي سلبت حياة العقاد نفسه في تفجيرها لإحدى فنادق الاردن، والثالثة هي هوية المجاهد لاپو- لاپو سلطان جزيرة ماكتان

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

الفلبينية ذلك المناضل المسلم الذي قاد حركة المقاومة ضد المحتل ، والرابعة هي هوية جماعة (أبو سياف) الارهابية التي تعيث في الناس قتلاً وفساداً ، فكل هذه الجماعات تدّعي الهوية الإسلامية:

" تركت جهاز اللابتوب على الطاولة متجها إلى سريري والحيرة في رأسي .أيهما الإسلام؟ أهو الذي شاهدته في "الرسالة" ،أم الذي قضى على حياة مُخرج فيلم الرسالة؟ أهو إسلام لاپو- لاپو سلطان جزيرة ماكتان ؟ أم إسلام جماعة أبو سياف في مندناو؟ الحيرة ..الخوف والشك يملأونني .تُرى ،هل استوطن الشيطان عقلي في الوقت الذي كنت أهيئ فيه قلبي بيتا لله ؟ " [48]. فهذا النص هو صورة صادقة تمثلها الروائي بشعور شخصيته الرئيسة، وهي تقف إزار هذا الاختبار الهوياتي العصيب الذي اختلط فيه الصالح بالطالح وأصبح التمييز من الصعوبة بمكان لكثرة الموجهات الضاغطة على الفكر الإنساني وكلٌ يدعي بصلاح مذهبه وتوجهه، فهذا الخوف والشك هو ما يشعر به كل شاب مسلم يقف موقف (عيسى) هذا ولاسيما تلكم الذين لا يمتلكون من الوعي الفكري والثقافي ما يؤهلهم لتلمس معالم الإسلام الحقيقي الذي يمثل الديانة الإسلامية التي جاء بها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

يجد (عيسى) أن الحضور الإسلامي في الفلبين يوفر له صورتين متناقضتين تماماً يتكلم كل منهما بلسان الإسلام:

"بطولة السلطان المسلم لاپو- لاپو وسيرته وتقدير عموم الناس له في الفلبين ،على اختلاف أديانهم ،واعترافهم بدوره في مقاومة المحتل ، صور جميلة قربتني إلى الإسلام كثيراً..جماعة أبو سيّاف بقتلهم الأبرياء والمُبشرين ،أبعدوني عن هذا الدين ..كثيرا " [49]

ولم يكن القلق الهوياتي الديني محصوراً داخل إطار الدين الواحد ونريد به الدين الإسلامي، إنما كان له حضور في إطار الديانات الأخرى ولكن بشكل أقل خطورة:

" كنت امام إبراهيم اجلس. كان صامتا كما كنت انا أيضا. في أذني اليمنى صوت الأذان يرتفع. في أذني اليسرى قرعُ أجراس الكنيسة. في أنفي رائحة بخور المعابد البوذية تستقر. انصرفتُ عن الاصوات والرائحة ، والتفتُ إلى نبضات قلبي المطمئنة ،فعرفت أن الله ..هنا" [50] فالصراع هنا هو صراع جواني داخل النفس الإنسانية ، انه خليط من ديانات مختلفة كلها تقود الى مبتغى واحد ولكن بطرق مختلفة ، الا أن (عيسى) وفي خضم هذا الموج المتلاطم من التقاليد والمناسك الدينة يجد ضالته فيعرف أن الله سبحانه يحل في قلوب عباده بغض النظر عن طرق وصول تعاليمه ، فالإيمان هو ايمان القلوب وليس ايمان التقاليد والأعراف.

الخاتمة

توصلت هذه الوقفة النقدية الى جملة من النتائج من أهمها:

- إن رواية (ساق البامبو) هي رواية هوياتية بامتياز بنى مؤلفها سعود السنعوسي معمارها السردي على هذه الثيمة المهمة، ويمكن أن نضمها الى ما يمكن أن نصطلح عليه روايات الهوية، التي تمثل اتجاهاً في الكتابة السردية الروائية المعاصرة.
- إن محاولات التنكيل والتقزيم والاستحقار والقهر والسلب الهوياتي لا يمكن لها أن تنزع الهوية الوطنية من نفوس أبناء الوطن، بل يضل الوطن

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

قابعاً في اغوار النفس الإنسانية مهما طال الزمن وبعدت المسافات.

- لا يمكن اختزال الهوية الوطنية في أوراق رسمية تثبت أنك تنمي لهذه الدولة أو تلك أو أنك مواطن درجة أولى، إنما هي انتماء وولاء وعنهما تتشظى مضامين كثيرة منها التضحية والدفاع عن الوطن والإخلاص له والعمل من أجله.
- إن الانتماء للهوية الوطنية لا يمكن أن تحده حدود أو أن تكبح جماحه سلوكيات طارئة أنما هي جينات تسري في دماء أبناء ذلك الوطن.
- إن جيل الشباب هو أكثر تقبلاً لأصحاب اللاهوية الذين لا يحضون بالاعتراف الهوياتي من قبل السلطة الاجتماعية المتمثل بـ(عيسى) أو السلطة السياسية المتمثل (بالبدون)، وكأن هذه بادرة صحية يعيشها المجتمع الكويتي وعليها يعول الروائي.
- الهوية الوطنية هي خليط من أشياء كثيرة لا يمكن فك عراها فهي التراب والبيرق والدين.
- تُعدُّ السلطة الاجتماعية السلطة الأكثر فعّالية في منح الأفراد الثقة في انتماءاتهم وولاءاتهم الوطنية.
- الاعتراف الاجتماعي هو البوابة الرئيسة لشعور الفرد بهويته الوطنية بوصفه عنصراً فاعلاً في بناء الدولة، ولذلك فإن حرمان الأفراد من هذا الشعور هو في حد ذاته ادانة كبيرة لذلك المجتمع.
- إن تعدد الانتماء الديني له الأثر الكبير في انتاج ثقافة دينية تسهم فيما بعد في ترسيخ هوية دينية منتجة تضمن ولاء الفرد لها.
- لم يكن الدين هو ما يقلق بطل الرواية (عيسى) بقدر ما كان يقلقه المكان الذي يستمد منه هويته الوطنية والاجتماعية.
- ثمة أساليب سلوكية اجتماعية دينية تسهم في ترسيخ هذه الهوية داخل نفوس الافراد، وعليها عوّل كثير بطل الرواية في تلمس هويته الدينية الحقيقية.
- أن البيئة التي يعيش فيها الفرد لها الأثر الكبير في إدراك وجود الله وهي التي تضفي طابعاً خاصاً على الهوية الدينية للفرد.
- تذهب الرواية إلى أن معرفة الله لا تحتاج الى هوية دينية معينة إنما هي معرفة قلبية بالدرجة الأساس، فكل الأديان ماهي الا طرق مختلفة تقود الى معرفة الله.
- ضياع الهوية الدينية الإسلامية في خضم الصراعات الايديولوجية داخل الدين الواحد وفي الطائفة الواحدة، فلم يستطع المرء التفريق بين الصالح والطالح.

الهوامش

(1) السرد والهوية /دراسات في السيرة الذاتية والذات والهوية ،جينز بروكمبير، دونال كربو ،تر:عبد المقصود عبد الكريم ، المركز القومي للترجمة ، ط1 ، 2015 ، 481 .

(2) ينظر:السرد والهوية /دراسات في السيرة الذاتية والذات والهوية ،جينز بروكمبير، دونال كربو،تر:عبد المقصود عبد الكريم ، المركز القومي للترجمة ، ط1 ، 2015 ، 462.

(3) ينظر: الهوية الوطنية –الحقائق والمغالطات ،د.أحمد بن نعمان ،دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع ،الجزائر ،1995، 23.

(4) فلسفة الهوية الوطنية العراقية ،هيثم الجنابي ،101.

(5) ساق البامبو(رواية) ، سعود السنعوسي ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، ط1 ، 2012 .

(6) الرواية ، 151 .

(7) الرواية ،365 .

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

(8) الرواية، 252 .
(9) الرواية، 313.
(10) الرواية، 27.
(11) الرواية، 94.
(12) الرواية،370 .
(13) الرواية،363-364 .
(14)الرواية، 253.
(15)الرواية،394 .
(16)الرواية، 395.
(17) الرواية، 395
(18) الرواية، 395 .
(19) الرواية،374.
(20) الرواية،363-364 .
(21) الرواية،346 .
(22) الرواية، 345 .
(23) الرواية، 353 .
(24)الرواية،316 .
(25) الهوية الوطنية والجهوية ، عباس الجراري ، بحث اليكتروني .
(26)الرواية، 324.
(27) الرواية، 382-383 .
(28) المصدر نفسه ، 383 .
(29) ينظر: نظرية الثقافة ،مجموعة من الكتّاب، عالم المعرفة، ط1، الكويت ، 1997 ، 31 .
(30) ينظر: السلطة والفرد ، برتراند رسل ، تر: د. نوري جعفر ، منشورات الجمل ، بغداد ،ط1 ، 2005، 27.
(31) الهوية والعنف وهم المصير الحتمي، امارتيا صن ،تر: سحر توفيق ،عالم المعرفة ، الكويت ، 2008، 70 .
(32) ينظر: المصدر نفسه، 46 .
(33) ينظر: المصدر نفسه ، 70 .
(34) ينظر: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية ، د. محمد عمارة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط1، 1991 ، 61.
(35) الرواية ، 207 .
(36) الرواية ، 63 .
(37) الرواية ، 63 .
(38) الرواية، 300 .
(39) الرواية ، 63 .
(40) الرواية، 65 .
(41)الرواية، 153 .
(42)الرواية، 178
(43) الرواية، 207 -208 .
(44) الرواية، 270 .
(45)الرواية،312 .
(46)الرواية، 272 .
(47) الرواية،358 .
(48) الرواية،273 .
(49) الرواية، 209 .
(50) الرواية، 300 .

المصادر

- ساق البامبو(رواية)، سعود السنعوسي ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ، ط1، 2012 .
- السرد والهوية /دراسات في السيرة الذاتية والذات والهوية ،جينز بروكمير، دونال كربو ،تر:عبد المقصود عبد الكريم ، المركز القومي للترجمة ، ط1 ، 2015 .
- فلسفة الهوية الوطنية العراقية ،هيثم الجنابي ،دار أفكار للدراسات والنشر ، مكتبة عدنان ، دار ميزوبوتاميا، سوريا ، بغداد ، ط1 ، 2012 .
- السلطة والفرد ، برتراند رسل ، تر:د. نوري جعفر ، منشورات الجمل ، بغداد ، ط1 ، 2005 .
- مخاطر العولمة على الهوية الثقافية ، د. محمد عمارة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط1، 1991 .
- الهوية الوطنية –الحقائق والمغالطات ، د.أحمد بن نعمان ،دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع ،الجزائر، 1995 .
- الهوية الوطنية والجهوية ، عباس الجراري ، بحث اليكتروني .
- نظرية الثقافة ، مجموعة من الكتاب ، تر: د. علي سيد الصاوي، عالم المعرفة، ط1، الكويت، 1997 .
- الهوية والعنف وهم المصير الحتمي، امارتيا صن ،تر: سحر توفيق ،عالم المعرفة ، الكويت.

DOI:10.18018/URUK/019-12/1179-1195

Abstract

With a high responsibility, Saud Al-Sanousi is an author of the art of narrative writing. He is aware of the power of writing. He deals with subjects of great importance not only in Kuwaiti society but also in the Gulf societies in general. He has the courage to write about the national identity in Kuwait which is the most sensitive subject in that country, but this act of writing has not touched the main concern i.e. the identity of the (Bedoons) and shamefully referred to in his novel (the leg of the bamboo) - the space of this reading - It is an issue of sensitivity where the condemnation is directed to the political authority without other authorities, rather than whether there is a condemnation, but it addresses the issue of identity from the point where the condemnation of the community without political authority to investigate the identity of the sons of Kuwaiti begotten by non-Kuwaitis where the condemnation is directed directly to the social aspect. The Bamboo Leg comes to reflect Identity by which the following points are resulted:

- The Bamboo Leg is a biographical novel with a distinction. Its author, Saud al-Sanusi, expresses this important theme and to be combined with what is called an identity novel, which represents a trend in contemporary narrative writing.
- National identity cannot be reduced in official documents proving that one belongs to a country or that or one is a citizen of the first degree, but loyalty and loyalty, which consist of many things including sacrifice and defending the homeland and loyalty to work for development.
- The youth generation is more receptive to non-identities who does not advocate recognition of identity by the social authority or political basket.
- Social recognition is the main gate of an individual's sense of national identity as a factor in state-building, and individuals being deprived of such feeling is a great condemnation of that society.
- The existence of social and religious behavioral methods that contribute to the establishment of this identity within the hearts of individuals and it is strongly based on the identification of its true religious identity.
- The loss of Islamic religious identity in the midst of ideological conflicts within one religion and one sect, one can not distinguish between good and bad.